

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

الطَّرِيقُ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ إِلَى السُّرُورِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

الطَّرِيقُ مِنَ الْإِثْلَاءِ إِلَى الشُّرُورِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

المقدمة المنهجية

الإنسان حين يقرأ بدايته من آخرته

ثمة سورٌ في القرآن تقف بالإنسان أمام الكون، وثمة سور تقيمه أمام التاريخ، وثمة سور تأخذه إلى مشاهد القيامة حتى يكاد يسمع اضطرابها في داخله؛ أما سورة الإنسان فإنها تفعل شيئاً أعمق وأشدّ التصاقاً بكياننا: إنها تأخذ الإنسان نفسه، هذا الكائن الذي ازدحم وعيه باسمه وصورته وماضيه ورغباته ومخاوفه، ثم تجرده في أول آية من كل هذا الضجيج، وتعيده إلى اللحظة التي لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، قبل أن يكون له اسم، أو وجه، أو ذاكرة، أو حكاية، أو أحدٌ ينتظر مجيئه.

ومن تلك البداية المذهلة تنشئ السورة سؤالها الكبير: ما الإنسان؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يمضي؟ وما الذي يجعل حياته ذات قيمة بعد أن كان عدماً لا يُذكر؟

إنها لا تمنحه فرصة أن يغتر طويلاً بوجوده؛ لأن أول تعريف له هو أنه حادث بعد عدم، ثم لا تدعه يئأس من ضالة أصله؛ لأن الذي أخرجه من ذلك الخفاء لم يخلقه عبثاً، بل منحه السمع والبصر، وهده السبيل، وجعل حياته ميداناً للاختيار، ثم فتح أمامه طريقين: شكراً يرد النعمة إلى المنعم، وكفراً يقطع النعمة عن معناها.

ولهذا فإن سورة الإنسان ليست مجرد وصف للجنة، على كثافة مشاهد النعيم فيها، وليست مجرد حديث عن الأبرار، على جمال أخلاقهم، بل هي سيرة الإنسان من قبل وجوده إلى ما

بعد موته؛ تبدأ حين لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم تمر بخلقه، وابتلائه، وهدايته، واختياره، وعمله، وصبره، وإخلاصه، ثم تنتهي حيث تنكشف الحقيقة الكبرى: أن الطريق كله يجري تحت علم الله وحكمته ومشيبته، وأن الغاية الأخيرة ليست مجرد النجاة من النار، بل الدخول في رحمته.

وسنسير في هذا الكتاب مع السورة كما تسير هي بالإنسان؛ لن نفرض عليها فكرة من خارجها، ولن نحمل ألفاظها ما لا تحتمل، وإنما ننظر في نظمها، وانتقالاتها، ومقابلاتها، ومشاهدتها، ثم نفتح للقلب باب التأمل فيما تهديه إليه معانيها؛ لأن التدبر الحق لا يستبدل التفسير بالخيال، وإنما يبدأ من المعنى الذي يدل عليه الوحي، ثم يسأل: ماذا يصنع هذا المعنى بالإنسان؟

وسنجد أن السورة تبني الإنسان على ثلاثة أصول عجيبة: أن يعرف من أين جاء حتى يسقط كبره، وأن يعرف لماذا وُجد حتى يستقيم اختياره، وأن يعرف إلى أين يمضي حتى تهون عليه العاجلة.

وبين هذه الثلاثة يتكون قلب الأبرار.

فهم لم يصبحوا أبراراً لأنهم رأوا الجنة قبل أن يدخلوها، وإنما لأنهم عاشوا في الدنيا وكأن الآخرة حاضرة في ضمائرهم؛ أطعموا مما يحبون من الطعام، ولم ينتظروا شكراً، وخافوا يوماً لم يقع بعد، فحماهم الله حين وقع، وصبروا على أيام قصيرة، فأعطاهم نعيماً لا ينفد.

ثم تأتي المفاجأة البيانية في آخر السورة: بعد كل الحرير والفضة والقوارير والسندس والزنجبيل والسلسيل، يعود الخطاب فجأة إلى القرآن والصبر والذكر والسجود. وكأن السورة تقول: هل رأيتم ذلك النعيم؟ هذا طريقه.

فالجنة لا تبدأ عند أبواب الجنة.

إنها تبدأ هنا: بكلمة حق تصبر عليها، وبشهوة تتركها لله، وبجائع تطعمه ولا تنتظر منه شيئاً،
وبسجدة في جوف الليل لا يراك فيها إلا الله.
ومن هنا تبدأ رحلتنا.

الفصل الأول

قبل أن يكون لك اسم

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾

يفتح القرآن السورة بسؤال لا يطلب جواباً بقدر ما يوقظ ذاكرة لا يستطيع الإنسان أن يتذكرها بنفسه؛ فالإنسان يتذكر طفولته، وقد يجد من يروي له يوم ميلاده، لكنه لا يستطيع أن يتذكر الزمن الذي لم يكن فيه موجوداً أصلاً، ولهذا يأتيه الخبر من فوق حدود ذاكرته: لقد مر على هذا العالم زمن طويل لم تكن أنت فيه شيئاً مذكوراً.

يا لها من ضربة هائلة لكبرياء النفس.

كل ما تثبت به من شهرة أو نفوذ أو مكانة، وكل ما تتألم لأجله من تجاهل الناس لك، سبقه زمن لم يكن أحد يعرف فيه اسمك؛ بل لم يكن الاسم نفسه موجوداً، ولم تكن هناك ذات تطالب بأن تُرى أو تُقدَّر.

إن أول علاج للغرور في سورة الإنسان ليس أن يقال للإنسان: تواضع، بل أن يُقال له: تذكر أصلك الزماني؛ لقد كنت غائباً تماماً.

والقرآن لا يريد بهذا أن يحتقر الإنسان، بل أن يضعه في موضعه الصحيح. فالذي يعرف أنه جاء بعد عدم لا يرى وجوده حقاً ذاتياً، وإنما عطية؛ ومن أدرك أن وجوده عطية صار كل صباح عنده شهادة جديدة على فضل الله.

إننا كثيراً ما نتعامل مع الحياة كما لو أننا نملكها، ونغضب حين لا تجري وفق رغباتنا، مع أننا لم ندفع ثمن اللحظة الأولى منها، ولم نفاوض على مجيئنا، ولم نختر زماننا ولا أجسادنا ولا ملامحنا ولا الذين ولدنا بينهم.

وجودك كله سبقتك كلمة من الله وإرادة من الله.

ومن هنا يبدأ الأدب مع الحياة.

أن نتعامل معها لا بوصفها ملكية، بل أمانة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

لم ينتقل الإنسان من العدم إلى الوجود ليقم في الحياة بلا غاية؛ فبعد ذكر الخلق مباشرة جاءت كلمة تختصر سر الرحلة كلها:

﴿نَبْتَلِيهِ﴾.

إن وجودك ليس واقعة بيولوجية فحسب، بل مسؤولية أخلاقية.

والسمع والبصر هنا ليسا مجرد أداتين في الجسد؛ إنهما من أدوات الامتحان. أنت تسمع لأن ثمة ما ينبغي أن تسمعه وما ينبغي أن تعرض عنه، وترى لأن ثمة حقائق وآيات ينبغي أن تبصرها، وثمة محرمات ينبغي أن تغض عنها بصرك.

فالنعمة نفسها تحمل سؤالها.

وما من قدرة يعطيك الله إياها إلا وفي أعماقها تكليف مستتر: ماذا ستصنع بها؟

الذكاء ابتلاء.

الجمال ابتلاء.

المال ابتلاء.

اللسان ابتلاء.

القدرة على التأثير ابتلاء.

حتى المحبة ابتلاء، وحتى الألم قد يكون ابتلاءً يكشف أيَّ قلب يسكن صدرك.

وعجيب أن الإنسان يمضي جزءاً كبيراً من عمره يسأل: لماذا حدث لي هذا؟ بينما سورة الإنسان تدربه على سؤال أشد نفعاً: كيف ينبغي أن أتصرف فيما حدث؟

فالابتلاء لا يعني دائماً أن الظروف سيئة، وإنما يعني أن كل ظرف يكشف جواباً منك.

وهكذا يصبح العمر ورقة امتحان طويلة، لكن الأسئلة لا تأتي بالحب، تأتي في هيئة مال، وفقر، وخصومة، وشهوة، ومنصب، وخوف، وحب، وفقد، وقدرة، وعجز.

وأنت تكتب الإجابات بأفعالك.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

لم يجعل الله الابتلاء لغزاً بلا دليل، ولم يترك الإنسان في متاهة ثم يحاسبه على الضياع؛ بل هداه السبيل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأقام الدلائل، وجعل في الفطرة والعقل والوحي منارات تهدي إلى الطريق.

ثم ترك للإنسان مساحة التكليف:

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وهنا يظهر أن الشكر في القرآن ليس كلمة بعد الطعام، بل موقف كامل من الوجود.
أن تكون شاكرًا يعني أن تعرف مصدر النعمة، وأن تستخدمها في مرضاة من أعطاك إياها.
العين تشكر حين لا تحون.

واللسان يشكر حين لا يكذب.

والقوة تشكر حين تحمي ولا تظلم.

والمال يشكر حين يعبر منك إلى من يحتاجه.

والعلم يشكر حين يزيد صاحبه خشية لا غرورًا.

ولهذا جعلت الآية الحياة كلها بين شكر وكفر، لأن الإنسان إما أن يعيش وهو يرد الأشياء
إلى الله، أو يعيش وهو يقتطعها من معناها الأعلى وينسبها إلى نفسه.

وهنا يتشكل السؤال الذي سيقود بقية السورة:

كيف يبدو الإنسان حين يختار الشكر؟

ستجيبنا الآيات القادمة.

الفصل الثاني

الطريقان: من السعير إلى الكأس

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾

بعد حرية الاختيار تأتي مسؤولية المآل.

فالإنسان ليس حراً بمعنى أن أفعاله بلا نتائج؛ إنه حر في الاختيار، لكنه لا يملك إلغاء حقيقة ما يختاره.

وتأتي السلاسل والأغلال والسعير بعد الكفر لتكشف مفارقة مؤلمة: من عاش في الدنيا يطلب الانفلات المطلق من أمر الله، ينتهي إلى القيود؛ ومن قيد شهوته بأمر الله ينتهي إلى الحرية الكبرى.

فكم من إنسان ظن الطاعة قيلاً، ولم ير أن الشهوة نفسها قد تصبح غلاً حول روحه.

وكم من شهوة بدأت اختياراً ثم انتهت استعباداً.

فالذنوب التي لا يقاومها الإنسان تستحيل بمرور الزمن إلى سلاسل نفسية قبل أن يرى سلاسل الآخرة.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مَرْجُهَا كَأُفُورًا ﴿١٠٦﴾ عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

ومن السعير ينتقل المشهد فجأة إلى كأس.

إنها المقابلة القرآنية التي لا تسمح لك أن ترى المصير مجرد تهديد؛ فإلى جانب النار باب مفتوح إلى نعيم لا يشبه ما عرفته الأرض.

ولكن الاسم الذي تطلقه السورة عليهم يستحق التوقف:

﴿الْأَبْرَارَ﴾.

لم تقل: الأغنياء، ولا المشهورون، ولا المنتصرون في مقاييس الأرض.

البر قيمة باطنة تفيض أثراً على السلوك.

والأبرار يشربون من كأس ممزوجة بالكافور، ثم من عين يهيهها الله لعباده، في مشهد كله صفاء وانسياب وكرامة.

وفي قوله:

﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾

تشريف عجيب.

فالعبودية التي قد يراها الإنسان الدنيوي نقصاً تصبح في ميزان القرآن أعلى القاب الكرامة. وما قيمة أن تتحرر من كل سيد إذا كنت عبداً لهواك؟ وما أعظم أن تكون عبداً لله فتتحرر به من كل ما سواه.

والعين التي ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ توحى بأن النعيم لا يأتيهم شحيحاً محسوباً كما تأتي موارد الدنيا، وإنما مسخراً لهم، قريباً منهم، ممتداً حيث شاءوا.

إنها كرامة من عرفوا في الدنيا كيف يمنعون أنفسهم بعض ما تريد، فأطلق الله لهم في الآخرة ما لا ينفد.

الفصل الثالث

سر الأبرار: أناس يفعلون الخير ولا يسمعون تصفيقه

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾

هنا تكشف السورة البنية الداخلية لهؤلاء الأبرار.

أول خصالهم الوفاء.

والوفاء من أندر أخلاق الإنسان حين تتغير الظروف؛ لأن كثيراً من الناس يعدون وهم في لحظة اندفاع، ثم إذا حان موعد التكلفة بحثت النفس عن مخارجها.

أما هؤلاء فيوفون.

إنهم يأخذون كلماتهم بجدية؛ لأن القلب الذي يعرف الله لا يرى العهد مجرد أصوات تخرج من الفم.

ثم تكشف الآية الدافع الأعمق:

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

إنهم يعيشون في الحاضر لكن الآخرة حاضرة في وعيهم.

وهذه واحدة من أعظم وظائف الإيمان باليوم الآخر: أن يجعل للغائب أثراً أقوى من ضغط اللحظة.

فالناس حولك قد يشجعونك على الخطأ، والمصلحة قد تغريك، ولا أحد يراقبك، لكنك تراجع لأن هناك يوماً في المستقبل أصبح بالإيمان حاضراً في ضميرك. ذلك هو الخوف الذي يصنع الحرية.

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

ليس البر أن تعطي ما استغنيت عنه فقط.

جمال الآية مختبئ في:

﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾.

أي أن العطاء يمس موضعاً تحبه النفس.

هناك فرق بين أن تتخلص من فائضك وبين أن تشارك إنساناً فيما تحتاج إليه أو تميل إليه.

الأول تفرغ.

والثاني تضحية.

ولهذا يربي القرآن القلب على أن الخير الحقيقي له شيء من الكلفة؛ لأن ما لا يكلفك شيئاً قد لا يكشف كثيراً عما في داخلك، أما أن تمد يدك بشيء تحبه، فهنا يحدث الانفصال العظيم بين الإنسان وبين عبوديته للأشياء.

ثم يذكر القرآن ثلاثة من الضعفاء:

مِسْكِينًا.

وَيَتِيمًا.

وأسيراً.

ويأتي ذكر الأسير في ذروة أخلاقية مدهشة؛ لأن الإحسان إذا تجاوز حدود القرابة والموافقة والانتماء، بلغ ذروةً من إنسانية الإيمان.

إن الجائع قبل أن يكون من جماعتك أو من غير جماعتك، إنسان له بطن يتألم.

واليتيم لا يحتاج نظريتك عن الرحمة؛ يحتاج أثرها.

والأسير لا يسقط أسره عنه حق الإنسانية.

وهكذا يختبر القرآن الإيمان في المواضع التي يسهل فيها على النفس أن تجد مبرراً للقسوة.

﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾

هذه الآية ليست وصفاً للعطاء فقط.

إنها تحرير للخير من أخطر آفاته.

فالإنسان قد يعطي مالاً، لكنه يأخذ في المقابل سلطة معنوية على من أعطاه. وقد يصنع

معروفاً ثم يحمل إيصال المعروف في ذاكرته سنوات، ينتظر اللحظة التي يطالب فيها بثمنه.

أما الأبرار فقد أغلقوا الحساب من البداية:

﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾.

يا لها من راحة.

أن تفعل الخير ثم تمضي.

لا تفتش في الوجوه عن الامتنان.

ولا تؤمك قلة الثناء.

ولا تتحول عطيتك إلى دين نفسي على الآخرين.

لماذا؟

لأنك أودعتها عند من لا تضيع عنده الودائع:

﴿لَوْجِهَ اللَّهِ﴾.

ومن عمل لله تحرر من مزاج البشر.

إن شكره لم يزد إخلاصه، وإن جحدوه لم ينقص خيره.

ومن هنا نفهم كيف تستطيع العقيدة أن تحمي النفس من مرارة الجحود؛ فالذي ينتظر أجره من الناس ينهار إذا نسوه، أما الذي وضع أجره عند الله فلا يستطيع نسيان الناس أن يفلسه.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾

ليس إخلاصهم غفلة عن الحساب.

إنهم يطعمون لأن قلوبهم ترى يومًا عبوسًا شديدًا، يومًا تنكشف فيه الأعمال كما هي، وتسقط التجميلات التي كان الإنسان يكسوها نفسه.

ومن المدهش أن خوفهم من ذلك اليوم لم يجعلهم يغلقون على أنفسهم، بل جعلهم أكثر رحمة بالآخرين.

ذلك هو الخوف الإيماني الصحيح.

لا يحول صاحبه إلى كائن مذعور مشغول بذاته، وإنما يجعله أعدل وأرحم وأنقى، لأنه يعرف أنه سيقف أمام الله.

فإذا كان خوفك من الله يزيد ظلمك للناس فقد أخطأت معنى الخوف.

وإذا كان تذكرك للآخرة يجعلك أصلب قلباً على الضعيف، فقد تسلت إلى دينك علة لم تأت بها الآخرة.

الأبرار خافوا.

فأطعموا.

وخافوا.

فوفوا.

وخافوا.

فأخلصوا.

هذه هي ثمرة الخوف حين يقع في قلب يعرف ربه.

الفصل الرابع

حين يتحول الخوف إلى نضرة

﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾

تأمل هذا الرد الإلهي البديع.

قالوا:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾.

فقال الله في جزائهم:

﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾.

خافوه قبل أن يأتي، فأمنهم الله حين أتى.

وكان الخوف الصادق في الدنيا يتحول أماناً في الآخرة.

ثم تأتي المقابلة في غاية الجمال:

يوم عبوس، ووجوههم نضرة.

ويوم قطير، وقلوبهم سرور.

ما الذي فعله الله؟

لم يرفع عنهم الشر فحسب، بل لقّاهم النضرة والسرور؛ كأن البهجة تخرج للقائم كما يخرج

المستقبل لحبيب طال غيابه.

وهنا قاعدة إيمانية واسعة: بعض الأشياء التي تركها لله لا تضيع، وإنما تغيّر صورتها ثم تعود إليك أنقى.

صبرت عن شهوة؟

ستعود سروراً.

أنفقت مالاً؟

سيعود نعيماً.

أخفيت معروفاً؟

سيظهر يوم تختفي دعاوى الناس.

بكيت خوفاً من الله؟

قد ترى أثر تلك الدمعة نوراً حيث تحتاج النور أكثر من أي وقت.

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحِيدًا﴾

كلمة واحدة جمعت الطريق كله:

﴿صَبَرُوا﴾.

صبروا على الطاعة.

وصبروا عن المعصية.

وصبروا على ألم الطريق.

وصبروا حين لم يشكرهم الناس.

وصبروا على حرمان عاجل من أجل نعيم آجل.

فكان الجزاء:

﴿جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ﴾.

إن السورة تعيد تعريف الصبر.

ليس الصبر مجرد الوقوف تحت الألم عاجزاً، بل القدرة على ألا تباع مستقبلك الأبدي لتخفف ضغط لحظة عابرة.

كل معصية تقريباً تقول للإنسان: خذ الآن.

وكل طاعة تقول له: ثق بما عند الله.

ومن هنا كان الصبر أحد أكثر أشكال الإيمان نقاءً؛ لأن الصابر يعلن بسلوكه أنه يصدق وعد الله أكثر مما يصدق إلحاح اللحظة.

﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾

بعد تعب الطريق يأتي الاتكاء.

وهذا من جمال الجزاء؛ فهو يأتي من جنس ما افتقده الإنسان.

كم تعب المؤمن في الدنيا من مقاومة نفسه، ومن ثقل التكليف، ومن طول الطريق، ومن شدائد لا يعرف الناس تفاصيلها.

ثم هناك:

﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾.

انتهى زمن المكابدة.

لا حر شمس يؤذيهم، ولا برد زمهرير يزعجهم.

والجنة هنا ليست فقط وفرة في الملذات، بل غياب لكل ما يعكر النعمة.

وهذا ما لا تقدر عليه الدنيا.

فكل لذة دنيوية تحفها قابلية الزوال.

الجسد الذي يستمتع يمرض.

والبيت الجميل قد يفارق.

والحبيب قد يموت.

واللحظة السعيدة نفسها تتحول بمجرد مرورها إلى ذكرى.

أما الجنة فليست مجرد نعمة؛ إنها نعمة أزيل منها الخوف على النعمة.

وتلك وحدها جنة أخرى.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

لا يطارد أهل الجنة النعيم.

النعيم هو الذي يقترب منهم.

﴿دَانِيَةً﴾

﴿ذُلَّتْ﴾

في الدنيا يركض الإنسان خلف حاجاته؛ يبذل العمر ليقترّب من شيء، فإذا بلغه ظهر له شيء آخر بعيد.

أما هناك فقد انتهت المسافة بين الرغبة والنعمة.

ومن لطائف المشهد أن الذين ذلّوا نفوسهم لأمر الله في الدنيا، ذلّ الله لهم قطوف الجنة في الآخرة.

من خالف هواه هنا، أطاعه النعيم هناك.

نعم لا يشبه ذاكرة الأرض

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۖ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾

هنا يدخل القرآن بالتفاصيل.

والتفاصيل في وصف الجنة ليست ترفاً بلاغياً؛ إنها تخاطب إنساناً عاش في عالم الأشياء، فيقرب إليه ما لا يعرف بما يعرف، مع بقاء حقيقة نعم الآخرة فوق حدود خياله. فضة لها صفاء القوارير.

وجمال يجمع خصائص لا تجتمع في مادة الدنيا.

ثم:

﴿قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

كل شيء بقدر.

لا نقص يترك في النفس حاجة، ولا زيادة تصنع كدراً.

ولعل من أعمق معاني النعيم أن الأشياء هناك تأتي منسجمة مع رغبتك بلا فوضى ولا إسراف ولا خوف.

فالإنسان في الدنيا قلما يجد التقدير الكامل؛ إما أقل مما يريد أو أكثر مما يحتمل.

أما نعيم الله فَقَدَّرَ بعلم من خلق النفس، ويعلم تماماً ما يملؤها سروراً.
﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۖ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾

تكرر صورة الشراب لأن العطش ليس عطش الجسد وحده.

الإنسان في الدنيا عطشان إلى أشياء كثيرة: إلى الطمأنينة، وإلى الجمال، وإلى الحب، وإلى الأمان، وإلى معنى يملأ قلبه.

وكلما شرب من ينابيع الأرض اكتشف أنها لا تروي ذلك الظمأ كاملاً.

ولهذا تأتي الجنة بوصفها موطن الارتواء الكامل.

﴿سَلْسَبِيلًا﴾.

حتى وقع الاسم يسري في السمع كالماء.

إن للقرآن قدرة عجيبية على جعل الصوت نفسه خادماً للشهد؛ فاللفظة سهلة مناسبة، كأن

حروفها تحمل شيئاً من صفة العين التي تسميها.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾

يتحول المشهد إلى حركة وجمال.

ليس لؤلؤاً مجموعاً في عقد، بل منثوراً؛ انتشاراً في المكان، وحركة تملأ المشهد إشراقاً.

إنها جنة لا يسكنها الجمود.

كل شيء فيها حياة وحسن وانسياب.

وحق الخدمة فيها ليست بصورة تحمل الإهانة أو التعب الذي عرفته علاقات الدنيا؛ إنها جزء من صورة التكريم والنعيم التي لا ظلم فيها ولا نصب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾

تعجز التفاصيل أخيراً.

بعد الكؤوس والعيون والقوارير والظلال والقطوف، تأتي عبارة واسعة:

﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

كأن اللغة تقول: ما وصفناه لكم ليس إلا نوافذ.

لو رأيت الحقيقة لرأيت أكبر.

واللافت أن الإنسان يقضي عمره يطلب ملكاً صغيراً، ثم يعرض الله عليه ملكاً كبيراً.

كم يستهلك المرء قلبه في صراع على غرفة صغيرة من الدنيا، بينما ملك لا يزول ينتظر من صدق وصبر.

إن المشكلة ليست في أن الدنيا بلا جمال؛ بل في أننا أحياناً نرضى بجمالها المحدود بدل أن نجعلها طريقاً إلى الجمال الذي لا يموت.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾

بلغت صور النعيم ذروتها، ثم جاءت الجملة التي تغير مستوى المشهد كله:

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

ليست القضية فيما يشربون فقط.

بل فيمن أكرمهم به.

والقرآن هنا ينقل القلب من النعمة إلى المنعم.

وهو انتقال بالغ الأهمية؛ لأن أسمى أهل الإيمان لا يقفون عند عطايا الله وينسون الله.

كل الجنة من رحمته.

وكل النعم أثر من آثار فضله.

والشراب طهور؛ في عالم قد طهر الله أهله من أوجاع الدنيا وأكدارها وآفاتهما.

وكان الرحلة التي بدأت من نطفة أمشاج تنتهي إلى شراب طهور.

من بداية ضعيفة مختلطة في أصل الخلق، إلى عالم طهر وكمال وكرامة.

ما أبعد المسافة.

وما أعظم الذي ساق الإنسان خلالها.

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾

توقف هنا طويلاً.

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

الله يشكر سعي عبده.

مع أن القوة منه.

والهداية منه.

والعمر منه.

والقدرة على الطاعة منه.

ثم يكرم عبده بأن ينسب السعي إليه ويشكره عليه.

أي كرم هذا؟

إن المؤمن قد يمر في حياته بأعمال لا يشكرها أحد.

يتعب في إصلاح لا يعرفه الناس.

يكظم غيظًا لا يعلم أحد كم كلفه.

يقاوم شهوة في غرفة مغلقة.

يمد يدًا في الظلام إلى محتاج.

يصبر على وجع لا يستطيع شرحه.

ثم يموت وربما لم يعرف العالم شيئًا من معاركه.

لكن هناك يوم يقال له فيه:

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

وهذا يكفي.

فليس كل عمل عظيم يحتاج أن يراه الناس.

يكفي أن يراه الله.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾

وهنا يأتي واحد من أبدع التحولات في السورة.

كما قبل لحظة في الجنة.

في الحرير والقوارير والسلسبيل والملك الكبير.

ثم يعود الخطاب إلى الأرض:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾.

لماذا؟

لأن الطريق إلى كل ما سبق هو هذا القرآن.

كأن السورة بعد أن تترك النهاية تعيدك إلى الخريطة.

هل تريد ذلك الملك الكبير؟

هذا الكتاب أمامك.

هل تريد أن يكون سعيك مشكوراً؟

هنا الهدى.

فالقرآن ليس كتاباً يصف الجنة فحسب، بل كتاب يضع الإنسان القادر بإذن الله على السير إليها.

وما أعظم تأكيد الآية:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾.

هذا القرآن ليس مشروعاً بشرياً.

إنه تنزيل.

ولأنه وحى الله، لا صناعة الإنسان، فإنه يملك من سلطان الهداية ما يعيد بناء الإنسان.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾

بعد التنزيل يأتي الصبر.

وكان امتلاك الحقيقة لا يعني أن الطريق سيصبح سهلاً.

بل قد يكون العكس.

من عرف الحق احتاج إلى صبر كيلا تغيره ضغوط الباطل.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

الصبر هنا ليس سكوناً سلبياً، وإنما ثبات على الموقع الذي أمرك الله به مهما اشتدت محاولات الإزاحة.

ثم:

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

هناك دائماً من يريد منك أن تدفع ثمناً من مبادئك مقابل راحة عاجلة.

خفف كلمة الحق.

تنازل قليلاً.

ساير.

غيّر موقعك.

أما القرآن فيبني استقلال الضمير المؤمن.

ومن أطاع الله حقاً تحرر من الابتزاز الأخلاقي للناس.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

كيف يصبر القلب؟

بالذكر.

فالقرآن لا يأمر بالصبر ثم يترك الإنسان يبحث وحده عن وقوده.

يعطيه مورد الثبات:

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾.

من الصباح إلى المساء لا ينبغي أن ينقطع الخيط بين القلب وربه.

ليس لأن الله يحتاج ذكرنا، تعالى عن ذلك، ولكن لأننا نحن الذين نحتاج أن نتذكر

باستمرار من هو الكبير حقاً، ومن بيده الأشياء حقاً، وإلى من يرجع الأمر كله.

فالنسيان يضحّم الدنيا.

والذكر يعيدها إلى حجمها.

حين تنسى الله يبدو لك خصمك ضخماً.

ومشكلك نهائية.

ومصيبتك أكبر من قدرتك.

وحين تذكر الله لا تختفي المشكلات بالضرورة، لكنها تفقد ادعاءها بأنها آخر الحقيقة.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا﴾

هناك أشياء لا يصلحها إلا الليل.

حين تنطفئ أصوات الناس، وتغلق الأسواق، ويهدأ صخب المطالب، يبقى الإنسان وربه.

والسجود من أعجب أوضاع الإنسان: يضع أشرف موضع في جسده، وجهه، على الأرض، فيرتفع قلبه.

إنه انخفاض الجسد الذي يصنع ارتفاع الروح.

والليل الطويل مدرسة الذين يحملون نهراً ثقيلاً.

فمن أراد أن يقاوم ضغط العالم في النهار، احتاج أن يتزود بعيداً عن العالم في الليل.

وهنا نكتشف أن السورة التي تحدثت عن الأبرار الذين يطعمون المسكين تكشف أيضاً مصدر قوتهم الخفي.

الأخلاق العظيمة تحتاج عبادة خفية.

فليس من السهل أن تعطي ولا تنتظر شكراً، أو تصبر ولا تخرف، أو تقاوم العاجلة، من غير قلب له مورد لا يراه الناس.

مرض الإنسان القديم: حب العاجلة

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾

ها هي السورة تشخص المرض في كلمتين:

﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾.

المشكلة ليست أن الدنيا موجودة.

بل أن قربها من العين يجعلها أحياناً أقوى من الآخرة في القلب.

العاجلة هي ما يمكنك أن تلمسه الآن.

مال الآن.

لذة الآن.

تصفيق الآن.

انتصار الآن.

انتقام الآن.

أما الآخرة فتطلب منك قدرة أعظم: أن ترى ما لا تراه العين الحاضرة.

ولهذا كان الإيمان تحريراً للإنسان من استبداد اللحظة.

أكثر الأخطاء الأخلاقية يمكن تفسيرها بحب العاجلة.

السارق يريد مالا عاجلاً.

والخائن يريد مصلحة عاجلة.

والظالم يريد انتصاراً عاجلاً.

ومن يبيع مبدئه يريد أماناً عاجلاً.

ومن أسرار التقوى أن يتعلم الإنسان ألا يكون عبداً لعجلة الرغبة؛ فيأخذ ما أباح الله حين يبيحه، ويترك ما حرم ولو ألحت عليه نفسه.

ثم يقول:

﴿وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.

وليس معنى أنهم يذرونه وراءهم أنهم قد تجاوزوه؛ فهو أمامهم لا محالة، وإنما ألقوه وراء ظهورهم من حساباتهم، وعاشوا كأنه لن يأتي.

وهذا أحد أخطر أشكال النسيان: أن تعرف الحقيقة نظرياً، ثم تعيش كما لو أنها غير موجودة.

﴿فَنَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾

تعود السورة إلى الخلق مرة أخرى.

بدأت:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾.

وها هي تذكرهم:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾.

لأن الذي يغرق في العاجلة ينسى أصلاً أساسياً: أنه ليس مالك نفسه.

﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾؛ أحكم الله خلقهم وقواهم وبنيتهم.

هذا الجسد الذي يستقوي به صاحبه ليس من صنع صاحبه.

وهذا العقل الذي يجادل به لم يخلقه لنفسه.

وهذا القلب الذي ينبض لم يوقع معه عقداً ليستمر.

فكيف يتحول الممنوح إلى متكبر على المانع؟

ثم:

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

ما أسرع ما يتصور الإنسان أنه ضرورة في هذا العالم.

ثم يرحل.

ويستمر العالم.

تأتي أجيال بعد أجيال.

تطوى أسماء كانت تملأ الدنيا، وتبرز أسماء لم تكن شيئاً مذكوراً.

وكان أول السورة يعود هنا في صورة أخرى.

كنت غير مذكور.

ويمكن أن تصير غير مذكور مرة أخرى في ذاكرة الأرض.

فلا تجعل غاية حياتك أن يذكرك الناس.

اجعل غايتها أن يرضى الله عنك.

الفصل الثامن

الطريق إلى الرب

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

بعد كل هذه الرحلة يقول القرآن:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾.

لم يقل: معلومة.

فالقرآن كثيراً ما لا يأتيك بشيء لا تعرف أصل معناه فحسب، وإنما يوقظ شيئاً قتلته فيك الغفلة.

أنت تعرف أنك ستموت.

لكن هل تتذكر الموت؟

وتعرف أن الله يراك.

لكن هل تعيش مستحضراً نظره؟

وتعرف أن الآخرة خير وأبقى.

لكن أيهما يحدد قراراتك فعلياً: العاجلة أم الآخرة؟

هنا الفرق بين العلم والتذكرة.

ثم:

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

ما أجمل التعبير.

ليس الطريق إلى جنة فقط.

ولا إلى نجاة فقط.

بل:

﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾.

هذه هي الغاية التي تجمع كل غايات الإيمان.

إن المؤمن لا يمشي في طريق العبودية لأن وراءه ناراً فقط، ولا لأن أمامه جنة فقط، بل لأنه عرف ربه، فأصبح الطريق كله متجهاً إليه.

والسبيل مفتوح.

والتذكرة قائمة.

والاختيار حقيقي.

لكن السورة لا تترك الإنسان عند مشيئته وكأنه كائن مستقل عن خالقه.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

هذه الآية تضع حرية الإنسان في موضعها الصحيح من حقيقة الكون.

في الآية السابقة:

﴿فَمَنْ شَاءَ﴾.

وهنا:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

فلإنسان مشيئة حقيقية بها يقع التكليف والمسؤولية، لكنها ليست مشيئة مستقلة خارجة عن سلطان الله.

وهذا هو التوازن الذي يحرر الإنسان من وهمين متقابلين.

وهم أنه مجبور لا مسؤولية عليه.

ووهم أنه مستقل يخلق مصيره بعيداً عن الله.

لا هذا ولا ذاك.

أنت تريد.

وتختار.

وتُحاسب.

ولكنك في ملك الله، وقدرتك نفسها من خلق الله، ولا يقع في كونه ما يخرج عن مشيئته وعلمه وحكمته.

ثم تحتم الآية باسمين يمنعان القلب من سوء الظن:

﴿عَلِيماً حَكِيماً﴾.

ومشيئة الله مشيئةُ العليم الحكيم؛ قائمةٌ على علمٍ محيطٍ وحكمةٍ بالغة.

فإذا ضاقت عليك أقداره، تذكر أن وراء ما لا تفهمه علماً محيطاً لا يعتريه نقص، وحكمة بالغة لا عبث فيها.

وهذه ليست دعوة إلى إلغاء العقل، بل إلى معرفة حدوده.

فالطفل قد لا يفهم لماذا يمنع الطبيب شيئاً يحبه، وعدم فهمه لا يعني أن الطبيب بلا حكمة.

فكيف بعلم الإنسان المحدود أمام علم الله؟

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

وهنا تنتهي سورة الإنسان.

بكلمة كان كل شيء منذ البداية يمهدها:

﴿رَحْمَتِهِ﴾.

بدأت السورة بإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً.

فمن الذي أخرجه من العدم؟

رحمة الله.

ومن الذي جعله سمياً بصيراً؟

رحمة الله.

ومن الذي هداه السبيل؟

رحمة الله.

ومن الذي أنزل القرآن؟

رحمة الله.

ومن الذي وقاه شر اليوم العبوس؟

رحمة الله.

ومن الذي أدخله الجنة؟

رحمة الله.

ولهذا لم تقتل الآية في النهاية مجرد: يدخل من يشاء الجنة.

بل:

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

كأن الجنة نفسها فضاء داخل الرحمة.

إنك لا تنجو بقوتك.

ولا تجعل عملك ثمنًا تظن أن لك به على الله حقًا ذاتيًا؛ فالعمل عبودية، والنجاة فضل،

والجنة رحمة.

وفي الطرف الآخر:

﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فلا تتحول الرحمة إلى ذريعة للتجرؤ، ولا يتحول الخوف إلى يأس.

بينهما يمشي المؤمن.

يرجو رحمة ربه.

ويخشى عذابه.

ويعمل.

من لا شيء... إلى رحمة الله

حين نغلق سورة الإنسان بعد آيتها الأخيرة، نكتشف أننا لم نكن نقرأ سورة تصف الإنسان بقدر ما كنا نقف أمام مرآة وجود كاملة.

في أولها:

﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

وفي آخرها:

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

وبين الجملتين تقع حياتك كلها.

يا له من اختصار مهيب للعمرة.

كنت عدماً.

نُفِئْتُ.

ثم ابتليت.

ثم هُديت.

ثم خُيرت.

ثم ستسعى.

ثم تموت.

ثم ترى قيمة ذلك السعي.

فما الذي يستحق أن يملأ المسافة القصيرة بين عديمين من ذاكرة الأرض؟

تجيب السورة:

أن تكون شاكراً.

أن تنفي.

أن تخاف الله.

أن تطعم.

أن تحسن إلى من لا يستطيع مكافأتك.

أن تعمل الخير لوجه الله.

أن تصبر.

أن تذكر.

أن تسجد حين ينام الناس.

أن تقاوم إغراء العاجلة.

وأن تتخذ إلى ربك سبيلاً.

ليست البطولة في سورة الإنسان بطولة استعراض.

الأبرار لا نراهم على منابر البطولة البشرية.

نراهم حول طعام.

إنسان جائع أمامهم.

وهم أيضاً يحبون الطعام.

ثم تقع المعركة الكبرى التي لا تصدر عنها نشرات أخبار:

تعطي أم تحتفظ؟

ثم يعطون.

لكن معركة أخرى أخطر تبدأ بعد العطاء:

هل تريد الشكر؟

فتجيب قلوبهم:

﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.

هنا يبلغ الإنسان منزلة عجيبة من التحرر.

ليس حراً فقط من المال الذي أعطاه، بل من حاجته إلى أن يصفق له من أعطاه.

وهكذا تعيد السورة تعريف القوة.

القوي ليس من استطاع أن يأخذ.

بل من استطاع أن يعطي وهو يحب ما يعطي.

وليس القوي من جعل الناس يشكرونه.

بل من استطاع أن يصنع المعروف ثم يختفي منه.

وليس القوي من ظفر بالعاجلة.

بل من استطاع أن يرى اليوم الثقيل وهو بعدُ غيب، فيرفض أن يبيع آخرته بلحظة.

ومن أعمق هندسة السورة أن نعيم الجنة الطويل يقع بين حديثين عن التكليف.

قبل الجنة نرى البر والإطعام والخوف والإخلاص.

وبعد الجنة نرى القرآن والصبر والذكر والسجود.

كأن الجنة محاطة بالطاعة من جانبيها.

وذلك هو الجواب لمن يريد الثمرة دون طريقها.

ليس في الوحي اختصار وهمي للمسافات الأخلاقية.

الجنة لها طريق.

وطريقها يبدأ من هنا.

من مكتبك.

وبينتك.

ومالك.

وغضبك.

وسرك.

وهاتفك.

وعينيك.

ولسانك.

وطريقة معاملتك لمن لا يملك لك نفعاً ولا ضرراً.

هناك يُكتب سعيك.

وهناك يتقرر ما إذا كانت العاجلة قد أسرتك أم أن الآخرة حررتك منها.

ثم تأتي أعظم عزاءات السورة للذين يعملون في صمت:

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

ربما لم يشكرك أحد.

ربما أعطيت فنُسيت.

وأخلصت فاتهمت.

وصبرت ولم يعرف الناس مقدار ما قاومت.

وتجاوزت عن أشياء كان بوسعك الانتقام فيها.

وتركت أشياء أحببتها ولم ير أحد لحظة الترك.

لا بأس.

ما دام الله يعلم.

ليس مطلوباً أن يحتفظ العالم بسجل بطولاتك الصغيرة.

هناك كُتاب لا يضل ربي فيه ولا ينسى.

وسَيَأْتِي يَوْمَ تَرَى فِيهِ كُلَّ تِلْكَ التَّفَاصِيلِ وَقَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى شَيْءٍ لَمْ تَكُنْ تَسْتَطِيعُ تَخْيِيلَهُ وَأَنْتَ
تَعْبِرُ الْأَلَمَ.

خَوْفُكَ يَصْبِحُ أَمَانًا.

وَصَبْرُكَ يَصْبِحُ جَنَّةً.

وَحَرَمَانُكَ يَصْبِحُ نَعِيمًا.

وَسَعْيُكَ يَصْبِحُ مَشْكُورًا.

ثُمَّ إِنَّ السُّورَةَ، مَعَ كُلِّ مَا فِيهَا مِنْ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ، لَا تَسْمَحُ لَهُ فِي النِّهَايَةِ أَنْ يَعْجَبَ بِنَفْسِهِ.
حَتَّى مَشِيئَتُكَ مَحْتَاجَةٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ.

وَحَتَّى طَرِيقُكَ إِلَيْهِ لَمْ تَكُنْ لَتَعْرِفَهُ لَوْلَا أَنْ ذَلِكَ.

وَحَتَّى صَبْرُكَ لَمْ يَكُنْ لَيَقُومَ لَوْلَا أَنْ ثَبَّتَكَ.

وَحَتَّى جَنَّتِكَ لَيْسَتْ أَجْرَةٌ تَضَعُهَا فِي جَيْبِكَ بِكِبْرِيَاءٍ، بَلْ رَحْمَةٌ تَدْخُلُ فِيهَا بِانْكَسَارِ الْعَبْدِ
وَفَرَحَةِ الْمَقْبُولِ.

وَهُنَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ أَجْمَلَ مَعْرِفَةِ بِنَفْسِهِ:

لَيْسَ شَيْئًا بِلَا اللَّهِ.

لَكِنَّهُ بِاللَّهِ يُمْكِنُ أَنْ يَصْبِحَ شَيْئًا عَظِيمًا.

لَقَدْ كَانَ يَوْمًا ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾، ثُمَّ يُمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ أَنْ يَقَالَ لَهُ فِي
الْمَلَأِ الْآخِرِ:

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

فما بين العدم والشكر إلا عمر.

وما العمر إلا سبيل.

وما السبيل إلا اختيار يتكرر كل يوم.

والسؤال الذي تبقيه السورة مفتوحاً في قلب قارئها ليس: من هم الأبرار؟

بل:

أيُّ إنسان أريد أن أكون حين ينتهي هذا الحين القصير من الدهر، ويأتي اليوم الذي لا ينفع فيه إلا ما قدمت؟

ولعل أجمل جواب أن يعيش المرء حتى إذا انتهت رحلته، لم يكن أكبر ما يرجوه أن يبقى اسمه مذكوراً بين الناس، وإنما أن يدخل - برحمة الله - في أولئك الذين رضي الله سعيهم، ووقاهم شر اليوم الثقيل، ولقاهم نضرة وسروراً، وقال لهم بعد رحلة التعب كلها:

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

هناك فقط يفهم الإنسان لماذا أُخرج من العدم.

ولماذا أُعطي السمع والبصر.

ولماذا هُدي السبيل.

ولماذا كان عليه أن يصبر.

ولماذا كان لبعض الحرمان في الدنيا هذا الثمن الباهظ من الجمال.

لقد كان الطريق منذ البداية طريقاً واحداً:

من الله... إلى الله.

وبين البداية والنهاية فرصة قصيرة اسمها:

الإنسان.